في وزارة المعارف
العبث بالعلم والتعليم والمعلمين

نكتب في إصلاح التعليم وتنظيم وزارة المعارف لأننا ننتظر الخير العاجل مما نكتب ، فنحن يائسون من هذا الخير العاجل ، مقتنعون بأن الأمور كلها قد تتغير وتتبدل وبأن الأرض قد تندك من حول وزارة المعارف دون أن تشعر وزارة المعارف بشيء أو تحفل بشيء في هذه الأيام . ذلك لأن وزير المعارف فى شغل عن وزارة المعارف بهذه الحوادث الجسام والنكبات المختلفة التى تنال مصر من يوم إلى يوم ، هو عن وزارة المعارف في شغل بما يدبر في مجلس الوزراء من تضمينات وتعويضات واجتماعات إلى آخر هذه القوانين المختلفة ، هو فى شغل بالسياسة عن التعليم . ولست اقول هذا منتحلا له أو متكلفا اياه ، ولكني اذكر إنى تحدثت إلى وزير المعارف فى يوم من الايام فلما الححت عليه في مراقبة المدارس الحرة أجابنى بأن هذا خير وبأنه معنى به ولكن الوزارة الآن في شغل عن هذا كله ... وأذكر أني لم أكن فى ذلك الوقت فطنا ولا حسن الرعاية لمقتضى الحال ... فسألت وزير المعارف : وما شأن وزارة المعارف فيما يقع في مصر مما لا يمس التعليم؟ اجابني الوزير فى لطف وسخرية وشيء من الغضب قليل : أظن أن لوزير المعارف صلة بمجلس الوزراء ! .

نعم . كان وزير المعارف محقا في هذا الجواب . فله صلة بمجلس الوزراء لأنه عضو من اعضائه ، ومجلس الوزراء فى شغل عن التعليم وما يشبه التعليم بأشياء أخرى ليس من شأنها أن تعين على اصلاح التعليم لأنها توجه أموال الدولة إلى حيث لا يستطيع أن يستفيد بها التعليم . كان وزير المعارف محقا ولكنه كان مخطئا أيضا . فليست وزارة المعارف محصورة في شخص الوزير ، وانما فيها الفنيون والمشيرون والمديرون لأمور التعليم . وهؤلاء مقصورة جهودهم على التعليم ، ليس لهم أن يتجاوزوه إلى غيره ولا أن يشتغلوا عنه بالسياسة العامة واخطارها . فاذا شغل وزير المعارف عن التعليم فليس لرجال المعارف أن يشغلوا عن التعليم . وفى الحق أن رجال المعارف ليسوا مشغولين عن التعليم وانما يعنون به ويفكرون فيه ويعملون له ، ولكن الرحى في وزارة المعارف تدور إلى الشمال لا إلى اليمين فتسمع لها جعجعة ولها ترى طحنا . نعم . رجال المعارف يشتغلون بالتعليم ولكن على غير وجهه . لان رجال المعارف قد أخذوا بنوع من أنواع العمل والتفكير ، هم عاجزون عن أن يتجاوزوه إلى غيره ، قد ألفوا سياسة تعليمية خاصة وضعها دنلوب فليس من اليسير عليهم بل ليس من المتاح لهم ان يتبدلوا من هذه السياسة سياسة أخرى مهما تتبدل الظروف وتتغير الاحوال ، ومهما يقتض استقلال مصر ودستور مصر أن يقوم التعليم على أساس الاستقلال والديمقراطية لا على أساس الاستعمار والاستبداد . وزير المعارف مشغول عن التعليم ورجال المعارف قاصرون عن أن يفهموا التعليم كما ينبغى أن يفهم الآن . واذن فنحن يأسون من الخير العاجل حين نطالب إصلاح التعليم وتنظيم وزارة المعارف . نحن يائسون من هذا الخير ولكننا نرجو خيراً كثيراً من البرلمان . فستعرض على البرلمان أمور وزارة المعارف جليلها ودقيقها وسيشعر البرلمان بما بين هذه الوزارة وبين أمال الامة ومستقبلها من البون الشاسع والبعد العظيم فيفكر في اصلاح هذه

الوزارة ويعمل ليلائم بينها وبين حياة أمة مستقلة ديمقراطية وأملنا في البرلمان هو الذي يحملنا على أن نكتب وعلى أن نلح في الكتابة . فان الواجب الوطني يقضى على كل مصرى بأن يظهر ما يشعر به من عيوب التعليم والنظام في هذه الوزارة ليعد الرأى العام إلى ما ليس منه بد قريبا أو بعيداً من اصلاح هذه الوزارة . وقد رأينا في مقال سابق ان نظرية المركزية في وزارة المعارف قد أفسدت فيها شيئا كثيراً وأضاعت فيها كفايات مختلفة كان من الحق والمنفعة ألا تضيع . فكلفت رجال التعليم الثانوى العناية بالتعليم الأولى وأهملت رجال التعليم الأولى الاهمال كله . بل كلفت أمر التعليم من ليس لهم صلة بالتعليم ووكلت نظار المدارس الثانوية إلى من لم يعرفوا المدارس الثانوية ، وخالفت فى هذا كله مصلحة الأفراد ومصلحة الأمة ومصلحة العلم نفسه . فرغنا من هذا في مقال مضى ، ويظهر ان رجال التعليم الذين ليس لهم في الوزارة حول ولا طول يشعرون بنفس ما نشعر به ويشكون من نفس ما نشكو منه . ولكن الرقابة عليهم شديدة . فهم لا يستطيعون أن يجهروا بما يشعرون لأن السلطة المركزية لهم بالمرصاد وهي تبث عليهم الجواسيس ويأخذ عليهم الطرق حتى أن أحد أصدقائي من المعلمين طلب لي ذات يوم أن أكف عن نقد وزارة المعارف إذا كنت أريد حقا أن تظل الصلة بينه وبيني قائمة متينة لأنه يخشى عواقب هذه الصلة أن مضيت أنا في هذا النقد . وربما كان ميلي إلى هذا الصديق شديداً وحرصى على منفعته عظيما . ولكني أشد ميلا إلى التعليم وحرصا على منفعة التعليم منى إلى هذا الصديق ومنفعة هذا الصديق . فسأمضى في هذا النقد والله يتولى أصدقائى المعلمين بشيء من الحياطة والرعاية .

هذه المركزية التي بينت آثارها فى مقال مضى قد أنتجت آثاراً أخرى شديدة الشر على التعليم لم أتمكن من الاشارة اليها . وأريد اليوم أن أذكرها في أسطر قليلة لأنها لا تحتاج إلى شرح ولا إلى تفصيل ولأنها تنطق بأنها شر ليس فوقه شر . فكرت وزارة المعارف - فيما يظهر - فى اصلاح التعليم على اختلاف درجاته ومنازله ، وليس في هذا التفكير إلا الخير . فالتعليم فى حاجة إلى الاصلاح ووزارة المعارف أحق الوزارات بالأعداد لهذا الاصلاح ، ولكنها سلكت إلى هذا الإصلاح غير سبيله ، فأنت لا تطلب إلى الحداد القيام بصناعة الخباز ولا إلى الخباز القيام بصناعة الحداد ، ولكن لكل صانع صناعته ولكل اختصاصى فنه واختصاصه . ذلك شيء لا معنى للإطالة فيه ، ولكنه غير مفهوم في وزارة المعارف ، أو هو مفهوم ولكن أحدا لا يحفل به لأنه يناقض المركزية التي هي أساس كل شيء فى هذه الوزارة . إذا أردت أن تصلح التعليم وجب عليك أن تؤلف لإصلاح التعليم لجانا من الاخصائيين . أول هؤلاء الاخصائيين هم المعلمون الذين مارسوا التعليم فبلوا حلوه ومره وعرفوا خيره وشره - وقد ألفت وزارة المعارف لجانا لإصلاح التعليم ، ولكن ما رأيك في أن هذه اللجان تخلو خلوا تامًا أو تكاد تخلو خلوا تاما من المعلمين ، هي مقصورة على المفتشين ورجال المعارف الذين لم يمارس أكثرهم التعليم إلا قليل . ولعل منهم من لم يمارسه قط .

ما رأيك فى هذه اللجان التي ستصلح التعليم وهى لا تعرف التعليم إلا معرفة نظرية تؤخذ من الكتب والاسفار والتقارير لا من معالجة الطلاب والتلاميذ والوقوف على نفسيتهم وملكاتهم وما ينبغى أن يسلك معهم من المناهج المختلفة المتباينة . أتظن أن هذه اللجان تستطيع أن تصلح التعليم حقا ، كلا . فان اصلاح التعليم موقوف على فهم التعليم وعلى فهمه فهما عمليًا فإنما على التجربة وطول

المراس . ولكن وزارة المعارف لا تستطيع أن تستشير المعلمين فى اصلاح التعليم ، فان استشارتها للمعلمين رفع لأقدارهم واعترف بمكانتهم وهى لا ترفع للمعلمين قدراً ولا تعترف لهم بمكانه وانما تنظر اليهم كما تنظر إلى قوم يعملون لان من الحق عليهم ان يعملوا فليس لهم أن يفكروا ولا أن يبتكروا ولا أن يشيروا ، وهم ان فكروا أو ابتكروا أو شاروا فقد تجاوز الحدود ، وأى تجاوز للحدود شيء من التطاول على السلطة المركزية التي لا ينبغي ان يعرض لها انسان إلا بالحمد والثناء وضروب الاعجاب والتمليق ؟ ...

في وزارة المعارف مضحكات كثيرة . منها أنها خالفت هذه القاعدة التي ذكرتها لك فأدخلت بعض المعلمين فى لجنة من لجان اصلاح التعليم ، ولكن انظر على أى وجه . ألفت لجنة لوضع مناهج التعليم المدرسة دار العلوم وأدخلت فيها معلما . فهل تظن أنها اختارت هذا المعلم من دار العلوم؟ من الذين بلوا تلاميذ دار العلوم وعرفوا قوتهم ونفسيتهم وملكاتهم وميولهم؟ كلا اختارت معلمها من مدرسة المعلمين العليا ! من الاساتذة الذين قد يسألون عن حملة الشهادة الثانوية فيحسنون الجواب لانهم عاشروهم ودرسوا لهم ، ولكنهم إذا سئلوا عن الشيوخ من طلاب الأزهر لم يحيروا جوابا لانهم لا يعرفون من أمر هؤلاء الشيوخ أمراً . أتستطيع أن تفسر هذا العمل الغريب؟ أما أنا فأفسره بإحدى اثنتين : الأولى وهى التى أرجحها لأنى حسن الظن بوزارة المعارف أنها تعمل دون تفكير ولا نظام وانما تترك الأمر للمصادفة وحدها . الثانية الاغراض والاهواء والميل إلى التفريق بين المعلمين وتأليب بعضهم على بعض . وقد تكون هذه الثانية شيئا لم تقصد اليه وزارة المعارف ، ولكنها من غير شك شيء تورطت فيه وزارة المعارف فلماذا يسكت أساتذة دار العلوم وغيرهم يقضى فى أمورهم ويستشار فى مدرستهم وفيهم الكفء وفيهم الخبير بأمر هذه المدرسة وفيهم القادر على أن يشير في أمرها بالخير .

تحدثت منذ حين إلى وزير المعارف فأنبأني بأنه حريص كل الحرص على أن يشترك في اصلاح التعليم رجال من الاخصائيين وبالغ فى ذلك حتى طلب إلى أن اسمى له ناسا يقدرون على الخير فى هذا وان لم يكونوا من وزارة المعارف وبالغ في هذا فاعلن إلى أنه يتمنى أن يستعين بالأخصائيين من أهل على اصلاح التعليم يندبهم لذلك خاصة . فحمدت للوزير هذا القول الحسن الذى يدل على فطنه وذكاءه وحسن رأى في التعليم . ولكنني بحثت عن الاخصائيين فى رجال الاصلاح فرأيت أن الاجانب لم يدعو ، وأن المصريين الخارجين عن وزارة المعارف لم يدعوا ، وأن المعلمين أنفسهم لم يهتموا ، بل رأيت شراً من هذا ، رأيت أن لجنة قد ألفت لوضع مناهج التعليم في دار العلوم وجمعت بين رجال المعارف ومعلمى المدرسة وآخرين ليسوا من المعارف ولا من المدرسة . فعدل عن هذه اللجنة لأنها كانت سيئة التأليف على لجنة أخرى حسن التأليف ليس فيها اجنبى عن الوزارة لان ثياب الوزير يجب أن تغسل في الوزارة ، وليس فيها معلم من المدرسة لان اساتذة المدرسة يجب أن يشعروا بأنهم جنود في هذه المدرسة يؤمرون فيأمرون دون أن يستشاروا أو يشيروا أو يحفل لهم برأى .

أقرأ هذا وفكر فيه وحدثنى عما يمكن أن ينتج من خير ، وحدثنى عن الوزارة التي تسلك هذا السبيل ملحة في سلوكها مهما يشير عليها المشيرون وينصح لها الناصحون . اتستطيع أن تنتهى بالتعليم إلى الخير؟ ثم حدثنى الست محقاً حين انبئك في أول هذا المقال بأنى يائس من الخير العاجل حين أكتب

فى نقد هذه الوزارة ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد بل يتجاوزه إلى ما هو شر منه ، فقد احدثك بقيمة المعلم في وزارة المعارف ولكن في غير هذا المقال .

طه حسين

السياسة ، ٣١ يولية ١٩٢٣ .